

العروبة رابطة وهدف

للأستاذ عيسى الناعوري

في العدد (١٠١٩) من هذه المجلة الغراء كتب الأستاذ على الطنطاوي افتتاحية بعنوان (العربية والإسلامية) حمل فيها على فكرة العروبة وصلاحتها لعالمنا العربي . ولسنا نشك أن الشيخ كان مخلصاً في دعوته ، وأنه كان يدافع عن عقيدة يعتقدونها ويتمسب لها . ونحن نمذره لذلك ، ونرجو أن يلتبس هو أيضاً لنا العذر إذ اجئنا بخالفه فيأراه ، ونسوق الأدلة التي تدفع ما أورده من حجج كان يعتقد أنها تستقيم بين يديه ، وهي في الواقع أبعد ما تكون عن الاستقامة . وما دام الإخلاص للمبدأ وللحقيقة هو رائد الشيخ ورائدنا فمن السهل أن تفاهم ونصل إلى نتيجة يكون بها سلاح عالمنا العربي وبلادنا العربية

لقد وقف الأستاذ في مقاله بين عاملين : أن ينظر إلى المليونين من العرب غير المسلمين الذين يعيشون في البلاد العربية ويشاركون المسلمين في قوميتهم ، أو إلى الملايين الثلاثة من المسلمين غير العرب الذين يشاركونهم في عقيدتهم الإسلامية ، والذين يظهر لنا أن ضخامة الرقم الأخير قد هالت الشيخ ، فرأى أن مركز العرب — أو مركز الكتلة التي فيها العرب — يقوى بهذا العدد الهائل أكثر مما يقوى بالمليونين وحدهم . ولهذا نبى دعوته على هدم فكرة الوحدة العربية ، وإقامة الوحدة الشرقية على أساس العاطفة الدينية وحدها

ثم كان من الأمور التي اعتقد الشيخ أنه قد أصابها المرمى وهو يحاول هدم الرأي القائل بوجود (إرادة مشتركة) بين أفراد الأمة العربية ، أنه تساءل قائلاً : « إذا قرأت أنا وعربي جبل لبنان الماروني تاريخ الغزوات الصليبية ، فهل يكون أثر هذا التاريخ في نفسى مثل أثره في نفسى ؟ »

بهاتين الملاحظتين تتلخص أقوى حجج الشيخ في مقاله الطويل ذي الصفحات الست ، ولسنا نجد بقية المقال ما يستوجب الاسترسال إلى الإنباس أو النقاش . فليسمح لنا بأن نقف عند هذا الحد لتجيب أولاً عن سؤاله ، ثم نبين له ما حاول أن يفتاسه من وقائع التاريخ البعيدة والقريبة مما في نظرنه الأولى

أنا لست مارونيا من جبل لبنان ، ولكننى مسيحي كموارنة لبنان وعربي في حقيقتي وشعورى . وأستطيع أن أجيب عن سؤال الشيخ صادقا مخلصا أنني لست أقل منه نعمة وسخطا على الحروب الصليبية — بداية الاستعمار الغربي للشرق — وعلى الذين شبهوا تحت ستار من الدين . ولست أقل منه سخطا على الدين نفسه — كل دين — إن كان من مبادئه أن يحل القتل والدمار في سبيل السلطان والمنافع الدنيوية . ولست أيضا أقل منه سخطا ونقمة على الغربيين المستعمرين ومظالمهم المجرمة في بلادى . ولا ينس الشيخ أنني أشترك مع هؤلاء المستعمرين اليوم ، ومع أجدادهم الصليبيين في الأمس ، بالعقيدة الدينية ، ولكننى احترمهم وأقهم عليهم بدافع من شعورى العربى القومى الذى أذله ولا يزالون يعمنون في إذلاله

وهذا الذى أقوله هو ما يقوله كل مسيحي عربى راع . وأظن الشيخ يوافقنى في أن قياس الحكم في مثل هذه الأمور هو الإنسان المثقف الواعى وليس السواد الأعمى . ولهذا أرجو أن يكون هذا الجواب كافيا لإزالة ما بنفسى الشيخ من هذه الناحية

أما أن الثلاثة مليون من المسلمين غير العرب أحق بأن يؤلفوا مع العرب وحدة كبرى ، فإننى أخالف الشيخ فيه كل المخالفة . ولست أظن الشيخ قد نسى «الشموية» — وهى لعنة أقدم وأدهى من الصليبية — وما جرت به على الأمة العربية من خراب وذل ، مما لا يزال يرويه التاريخ بكثير من الخجل والمرارة . والشيخ لا يجهد أن الشموعيين

ويشهد الله أنني لا ألوم تركيا في شيء من هذا، فهي تعرف مصالحها السياسية والقومية، وتعمل ما يناسبها بوحى من هذه المصالح وحدها، ولكننى أسوق هذه الأمثلة والحجج لأثبت للشيخ أن الدين وحده ليس بالرابطة التي تصلح لبناء وحدة الأمة، فلعنله يؤمن معى بأن (الإدارة المشتركة) موجودة بين أبناء العروبة أتم وجود، بينما هي بين الشعوب الإسلامية، كما هي بين الشعوب المسيحية والوثنية واللا دينية أيضا، إذا أمكن وجودها إلى حين، فلا يمكن وجودها إلى الأبد، ولا إلى وقت طويل، لأنها روابط مصلحة وقتية لا شعور طبيعي

لست أنكر أن السلم العربي يشترك مع السلم غير العربي في الشعور الديني، كما يشترك المسيحي العربي مع الإنكليزي أو الفرنسي أو الأمريكي مثلا بهذا الشعور الديني، ولكن هناك حقيقة كبرى لا يجوز أن نتجاهلها وهي أن المصالح القومية لن تتقيد في يوم من الأيام بالشعور الديني وحده، فالسليحي العربي ينظر إلى المستعمرين الغربيين ... وهم من دينه ... نظرته إلى أعداء بغيضين، يتمنى أن تتبجح له الأيام فرصة التأثر منهم لكرامته القومية المهانة. وقد أثبت بالفعل في كل مناسبة شدة عداوته لهم، وفلسطين أقرب شاهد على هذا

إنني مع الأستاذ الطنطاوي في أن الأمة العربية لم يوجد لها ولم يكتب لها تاريخ المجد سوى الإسلام، وأنا أعتز مع الأستاذ كل الاعتزاز بالإسلام وبهذا المجد الذي كتبه الإسلام للأمة العربية. فالإسلام مصدر فخر واعتزاز قومي لسلك عربي، ولكن «العروبة» التي خرج منها الإسلام لن تكون قط مصدر فخر واعتزاز لكل مسلم غير عربي. وإذا كانت بعض الشعوب الإسلامية تشارك البلاد العربية في شعورها وأمانها في بعض المناسبات، فليس معنى هذا أنها ترغب مخلصا في ربط حياتها ومصالحها السياسية والاقتصادية معها برابط واحد وإلى أمد طويل،

م من الجماعات غير العربية التي أفسح لها الإسلام من زحابة كرمها، ووسع لها في كنفه تسامحا، ولكن إسلامها لم يخدمها من النعمة على العروبة - والعروبة منشأ الإسلام ومنبته الأول - فكانت هي أول العوامل على تقويض سلطان العروبة والإسلام

ولست أرى في موقف الشمويين ذلك ما يستحق المؤاخذه على الإطلاق، فقد كانوا برغم وحدة العقيدة الدينية يشعرون بأن العرب أمة فاتحة، احتلت بلادهم، وجيبت إليها أموالهم، وتسلطت على ممالكهم تسلط الفاتحين، وعاملتهم في عهد الأمويين معاملة الخدم والموالي، فكانوا لذلك ينظرون إلى هذه الأمة الفاتحة - أو المستعمرة بلغة اليوم - بشعورهم القوي المدأني الحنذر، تماما كما ينظر اليوم إلى المستعمرين الغربيين بشعور الكراهية والعداء القوي والذي حدث في الماضي لدينا منه نماذج في حاضرنا المشهود - وهو فيما يرى شيء طبيعي جدا في مفهوم القوميات. - فهذه تركيا ... جارتنا المسلمة - ترى أية رابطة يمكن أن تقوم بينها وبين سوريا - بلد الشيخ الطنطاوي العربية المسلمة؟ - ألم تقطع من قلب سوريا جزءا غالبا هو لواء الاسكندرونة الذي لا يزال كل سوري يحلم باستعادته؟ وتركيا بهذا قد كسبت لنفسها نصرا قوميا على حساب خسارة العرب القومية

ألم تتنكر تركيا لشعورها الديني نفسه ولشعور العالم الإسلامي كله، في عهد قريب جدا، وتحارب الأنة العربية رغبة في تنمية شعورها القومي، وميانة سيادتها القومية الكاملة؟ ثم ألم تتنكر تركيا المسلمة نفسها في عهد الحاضر لكل ما أجمعت عليه جاراتها العربيات المسلمات من محاربة إسرائيل - عدوة العرب وخدم، لا المسلمين كلهم - ومقاطعتها ومحاصرتها وعدم الاعتراف بها؟ وهل يذكر الشيخ لتركيا موقفا جديا واحدا في تأييد أمان البلاد العربية معاضدة قضية من قضاياها؟